لو أقر المجمع !..

للأستاذ على الطنطاوى

أديت أمس حسابي في المطعم وتهيأت للخروج ، فسمعت من ورائي لهجة غريبة ... فالتفتّ فرأيت على مائدة قريبة مني ، عراقياً بسيدارة ، ومعه شامي بعمامة مطرّزة ، ونادل المطعم قائم أمامهما ، والعراق يقول له :

— ماعون باجيلا على تِمّنْ ، وصَمّونَهْ .

والنادل مبهوت ، يقول :

— إيه ؟! إيه ؟!

فيقول الشامي : العمى ! شو ما بْتِفهم عربي ؟ بدُّو ماعون ما بتعرف الماعون ؟ يعني طبق غسيل ، وصابونهْ .

— النادل : ليه بَأَه ؟

— الشامي : ليش ؟! بَرْكي بدّو يتغسل !

(ويضحك من نكتته)

— النادل : يتغسل ! بعيد الشرّ ، عاوز تؤول يشَطَّفْ .

— الشامي (مغرقاً في الضحك) : يشَطَّف ! يا عيب الشوم ، شو ما بستحي انْتِهْ ؟

— العراقي : والله ، مادا أفْتَهِم ، حتّى غريب هْوايَهْ ، يا بَهْ ، ما تِحْتشي عربي ؟!

— النادل : ما تحكي عربي ، يا خويا ؟!

— الشامي : لكان عَمْ يحكي أرناؤوطي ؟! هذا عربي !

— النادل : أمّال بؤول إيه ؟

— الشامي : بؤول بدّو كوسا محشي ومهوايه ، يعني مروحة

* * *

ولم أستطع أن أتقاعس أكثر من ذلك ، وخفت أن يفضحني الضحك ، فخرجت وأنا أسائل نفسي : ماذا يكون لو أقر مجمع اللغة (العربية ...) اقتراح الأستاذ فريد أبو حديد بك ، الذي يدرسه الآن أعضاؤه ؟

والذي يقول فيه « فلو كانت العامية لا تزيد على أنها استخدمت أداة للتعامل في الأسواق والحياة اليومية لكان أمرها هيناً ، ولكنها منذ رهنت على صلاحها للتعبير الأدبي صار من الممكن أن تنطلق في سبيلها متباعدة عن الفصحى حتى ينتهي بها الأمر إلى الاستغناء عنها ، بل إن جمال أساليب التعبير العامي إذا بلغ مداه كان أجدر أن يسترق القلوب لأن تلك الأساليب أقرب إلى النفوس والأفهام من الفصحى لشدة اتصالها بحياة الكافة .

ولقد كان من أكبر ما عمل على تقويض أركان اللاتينية ظهور كتاب مبدعين في اللغات القومية الأوربية ، وقد كانت تلك اللغات عامية في وقت من الأوقات بالنسبة للغة اللاتينية ، فقد ظهر دانتي في إيطاليا ، وكتب روائع قومه بلغته (إلى أن قال) ولكنا لا نخشى على العربية الفصحى أن يكون مآلها هو مآل اللاتينية لعدة أسباب :

١ — إن العامية لم تستطع إلى الآن (تأمل) أن تتسامى إلى آفاق الفكر العليا ، فإنها لم تزد بعد (تأمل) على أن تكون وسيلة للتعبير الساذج والأحاسيس الابتدائية ، ولم يظهر فيها بعد (تأمل) أمثال النوابغ الذين أنتجوا روائعهم الخالدة ، بلغاتهم الأوربية الحديثة الدارجة .

٢ — إن الفارق بين العامية والفصحى لم يبلغ شيئاً يقرب من الفارق بين اللغات الأوربية الدارجة وبين اللاتينية ، فما زال التفاهم ممكناً في سهولة بين المثقف وغير المثقف بلغة سليمة بسيطة فصحى .

غير أننا لا ينبغي أن نتجاهل الخطر الماثل في لباقة اللغة

من سلالة من طين . وقد جاء في القرآن الكريم « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ولم يقل أحد أن خلق الأحياء جميعاً من الماء يمنع تسلسل الإنسان من مادة الطين ، فإن الأصل لا ينعدم إذا خرجت منه الفروع على التسلسل والتدريج ، أو خرجت منه دفعة واحدة بغير تسلسل ولا تدريج . وحذار أن نقف في هذه المسألة كما وقف المجادلون من قبل في مسألة الأرض واستدارتها ودورانها ، فإنهم يدعون لأنفسهم ما لا يجوز لأحد أن يدعيه باسم العلم أو باسم الدين ، وفوق كل ذي علم عليم .

عباس محمود العقاد

العامية ، وصلاحيها كأداة للتعبير الأدبي فهو إن كان اليوم محدوداً فقد يكون غداً أقوى وقد تصبح أقدر على الأداء الأدبي السامي من الفصحى إذا فتن الشباب المثقف بالإنتاج الفكرى باللغة العامية ، وعملت أجيال منهم على الارتفاع بها إلى المستوى الأدبي الذي يجعلها لغة فكر وتعبير صحيح » اهـ .

رأفكر ماذا يكون لو فتن الشباب المثقف هذه الفتنة (نعوذ بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن) ، وصار فى الدنيا لغة شامية ولغة مصرية ولغة عراقية ، ونشأ فى كل واحدة منها أدباء وشعراء ، كما هى الحال فى الفرنسية والإيطالية والأسبانية ، وإن بقيت اللغة الفصحى (كما يريد الأستاذ) لغة القرآن والعلماء والمساجد والمعاهد العالية ، وماذا يصنع إدن صاحب المطعم الذى كنت آكل فيه آنفاً ؟

إنه لا بدّ له من ترجمان ، عارف بهذه اللغات ، واقف عليها ، متخصص فيها ، عالم بدقائقها وسنن أهلها فى كلامهم ، ليفهم النادل أن الماعون فى بغداد هو الطبق فى مصر ، والصحن فى الشام ، وأن التشطيف فى مصر غسل الوجه واليدين ، ولكنه فى الشام غسل الـ . . . أعنى الاستنجاء ، وأن الصمّونة فى بغدادهى رغيف الخبز الأفرنجى ، ويسمى فى دمشق الأفرنجونى ، والباجيلاّ الفول والتمّن الرز ، وأن الـ (هُـوايَة) فى العراق ، صفة للشىء الكثير ، وهى فى غوطة دمشق الصفعة على الوجه ، وأنك إذا (بسطت) رجلا فى الشام ومصر فقد سررته ، وإذا (بسطته) فى العراق فقد ضربته ، والمبسوط المضروب (عَلْقة) ، وهى فى الشام (فَلَقة) ، والتقليع فى الشام الطرد من الدار ونحوها وفى مصر نزع الثياب وأن التقفيل فى مصر إغلاق الباب وله فى الشام معنى هو أخبث من أن يشار إليه ، و(هُـون) فى الشام هنا ، وفى العراق (هنانا) ، والهون فى مصر هو الهاون الذى يدق به واسمه فى الشام الهاون ، هذا عدا عن الكنايات السائرة والمجازات المشهورة ، وهى كثيرة فى كل بلد لا يعرفها إلا أهله يلحنون بها فى أحاديثهم ، ويسخرون بها من الغريب ، وعدا عن اختلاف النطق وما ينشأ عنه من اختلاف المعنى ، فمن المصريين من يميل بالسين إلى مخرج الزاى ، ومن هنا سارت النكتة فى دمشق عن مدرس مصرى جىء به إلى مدرسة بنات ، فقال لإحداهن مؤنباً :

— إيه الأسباب التى منعتك من إعداد الدرس ؟

وفى العراق يجعلون القاف جيما معطشة ، وقد سألت حوذياً يوم وصلت بغداد ، أن يأخذنى إلى ضاحية نزهة ، فقال :

— تروح باب شرجى ؟

فكدت أبطش به ، وما يريد إلا (الباب الشرقى) وهو من متنزهات بغداد .

وليس يجىء هذا الترجمان إلا من مدرسة ، فلابدّ لنا إن أقر المجمع اللغوى هذا الاقتراح من أن ندرّس هذه اللغات الشرقية الحية فى مدارسنا الثانوية ، وننشىء لها قسما فى كلية الآداب ، أو أقساماً لأن اللسان الشامى سيكون فيه لغات متعددات ، فاللغة لدمشق ليست لغة حلب ، وهى تخالفها فى معانى المفردات ، وفى تركيب الجمل ، وفى طريقة النطق ، ولغة حلب غير لغة حمص ، ولغة حمص غير لغة حماة ، وكلها تخالف لغة دير الزور ، وهذه تخالف لغة البادية ، فصار عندنا فى الشام لغات فى كل منها لهجات ، فلهجة أهل دمشق غير لهجة أهل الغوطة ، ولهجة هؤلاء ليست لهجة جبل القلمون ، وفى القلمون عشرون لهجة تختلف اختلافاً بيناً ، وفى كل منها شعر ... وأدب ... إى والله وموسيقى ... وقس على ذلك ألسنة لبنان وفلسطين والعراق ومصر والسودان والحجاز واليمن وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، واجمع هذه الألسنة بما فيها من اللغات واللهجات ، تجدها تحتاج إلى عشرة أساتذة لهم كراسى فى الجامعة ، وتحتمل عشرة دبلومات ، يكتب صاحبها على بطاقته (فلان ، دبلوم اللغات العراقية) أو (دبلوم اللهجات اللبنانية) ... ودبلوم فى أصول هذه اللغات ومصادرها ، ودبلوم فى نحوها وصرفها المقارن .

وعندئذ يكون شكوكو من أمراء الشعر الذين تدرس آثارهم فى الجامعة ، واسماعيل ياسين من أمراء النثر ، ويكون من تعبيرات النقد الجديد ، أن نقول للكاتب المقعد الذى لا يفهم « إنه يكتب بالعربى » كما يقال فى أوربة عن الكاتب الفرنسى المحدث إذا أغرب وعقّد ، أنه يكتب باللاتينى .

وعندئذ ينشأ فى كل لسان ، تراجمة يترجمون إليه الآثار العربية لتحفظ فى المدارس ، ويربّى بها النشء على البلاغة كما ترجمت إلى الفرنسية آثار دانتى وشرجيل ، فتحفظ الطلاب فى دمشق قول المتنبى ، مترجماً هكذا :